اللعبة الأخيرة

حينما يُحكم على شخص بالإعدام يسألونه: ما هو طلبك الأخير قبل تنفيذ الحكم؟ وحسب معرفتي؛ معظم المحكومين يطلبون وجبة طعام خاصة.

كلما طال أمد الحرب وأنت ما زلت حيًا، يبدأ احساسك أن النهاية قد اقتربت. يتسلل لداخلك شيئًا فشيئًا وتبدأ بتوديع هذه الدنيا على طريقتك؛ مثلاً بترك انطباع جيد عند كل من تصادفه من أصدقاء وجيران وزملاء، أو تشتري ما ترغب من احتياجات إن أمكن، أو تتصل بالأصدقاء والأقارب تودعهم بشكل غير مباشر، وهكذا.. والبعض الآخر يبدأ بالشكوى والصراخ أو وصف الحالة السياسية والاجتماعية سواء بنقدها أو الثناء عليها إما بالجلسات الخاصة أو عبر وسائل التواصل الاجتماعي أو الكتابة أو التصوير.

ولكن ما لفت انتباهي قبل أيام وبعد أن تعرض منزلنا للقصف، وكانت رائحة الموت المختلطة برائحة الدخان المختلط بالبارود، والمواد المتفجرة تزكم أنوفنا على أثر قصف البرج المجاور لنا، المهم أننا نجونا بأعجوبة مثل المرات السابقة! ما لفت انتباهي أن الأطفال لا يتحدثون ولا يشتكون، فقط يموتون، وأصبح تعبيرهم بالبكاء والصراخ والعنف المتواصل هو سبيلهم الوحيد للتعبير عما يشعرون به من خوف ورعب وعدم الشعور بالأمان. وكلما طالت مدة الحرب بدأ الآباء والأمهات أيضًا بالانزواء بذواتهم، وقلّت قدرتهم على تحمل الحرب. وقلّ اهتمامهم بأطفالهم كثيرًا، وأصبح الأطفال مهملين دون رقيب، وصار فعلهم الوحيد تقريبًا أن يتعاركوا فيما بينهم، ويتعرضون لخطر حقيقي. وكثيرًا منهم نقل إلى المستشفى نتيجة ضربة ما من طفل آخر.

منذ بداية الحرب كنت كثيرًا ما أهتم بالأطفال، أتحدث وألعب معهم، ولكن بعد القصف الذي تعرضنا له، سألت نفسي ماذا لو استشهد الجميع؟! كانت إحدى حفيداتي واسمها رومانس عمرها ١٢ عام قبل أسبوعين قد أبلغتني أنها ترغب بشدة الذهاب إلى مطعم لتأكل شاورما، تريد أن تجلس على المقعد وتشبك يديها على الطاولة وتطلب ماءً مثلجاً في ظل انقطاع الكولا. طلعة مثل أيام زمان! فقلت لنفسي لابد أن أصطحب الأطفال جميعًا وامهاتهم، للذهاب إلى المطعم لأنها قد تكون الوجبة الأخيرة.

بالنسبة لحفيدتي الصغرى حور ابنة العام وثلاثة أشهر، كانت هذه المرة الاولى التي تذهب بها إلى المطعم، وكانت سعادتها غامرة، شعرت أن هذه طلعة أطفال جميلة. وبالمناسبة اكتشفت أن من أعمارهم ثلاث وأربع سنوات من الأحفاد، هم الأخرين قد نسوا رحلاتهم إلى المطاعم، وكانت المرة الأولى بالنسبة لهم التي يختبرون بها الجلوس بالمطعم.

في ظل عدم استيراد ألعاب للأطفال فالألعاب شبه مقطوعة في غزة، لكن في الماضي كانت الطفلة بعمر حور، لديها غرفة ألعاب كاملة؛ قلت في نفسي لابد أن أشتري لعبة لحور. ذهبت إلى السوق ووجدت لعبة عداد جميلة اشتريتها لها، لأن هذا ما وجدته ولم أتخيل أنها ستعجب حور، ولكنها التقطتها وعرفت أن هذه لعبتها وتشبثت بها بكل الفرحة والسعادة الغامرة بالدنيا، وبدأت تلهو بها فورًا. والأهم أنها علمت أن هذه اللعبة خاصة بها! الأطفال يعرفون الألعاب، ويعرفون بحدسهم أشياء كثيرة أخرى يجب عدم مصادرتها، فهناك الكثير من الأشياء التي يجب أن يختبروها ويجربوها لأنها قد تكون الوجبة الأخيرة أو اللعبة الأخيرة. ولأنه ببساطة دق الموت جدران منزلنا ثلاث مرات، وأهال الجدران علينا، ونجونا بأعجوبة، واستشهد وأصيب بعضنا، ولازلنا نعيش بالصدفة البحتة.

علي أبو ياسين
15/8/2024